المنظر من شارع الجبل (حيفا)

□ يوآب بار

شارع الجبل

يبدأ شارعُ الجبل في حيّ وادي النسناس، القريبِ من ميناء حيفا، ويتسلّق جبلَ الكرمل متوجّهًا نحو دير ستيلا ماريس، وقد يكون هذا الطرفُ من جبل الكرمل هو البقعةَ الوحيدةَ من فلسطين التي ترى منها البحرَ حين تنظر شمالاً. ويمتدّ النظرُ ليشملَ مدينةَ عكّا القديمة ومستوطنةَ نهاريّا، ومن بعدها جبال رأس الناقورة تناطح البحرَ وتستّر الجنوبَ اللبنانيّ.

عانى شارعُ الجبل الكثيرَ على مدى السنين. فقد طُرد معظمُ سكّانه العرب، مثلهم مثل أكثر من ٧٠،٠٠٠ من سكّان حيفا العرب، أثناء التطهير العرقيّ الجماعيّ عام ١٩٤٨. وحَوّل الصهاينةُ اسمَ الشارع إلى «شارع الأمم المتحدة» ـ تقديرًا منهم لقرار الأمم المتحدة تقسيمَ فلسطين، ومنْحَها مدينةَ حيفا العربية إلى الدولة اليهوديّة، ومن ثم شرعنةَ جرائم التطهير العرقيّ التي ارتكبوها. وبقي القليلُ من سكّان حيفا العرب، حوالى ثلاثة آلاف، في حيّ وادي النسناس. وانضمّ إلى العرب في حيفا خلال السنين الكثيرُ من لاجئي القرى والمدن الشماليّة الذي هُدمتْ عام ١٩٤٨، فسكنوا في شارع عبّاس الممتدّ إلى غربه، فزاد العربُ وملأوا «الصليبيين» القريبَ من قمّة الكرمل ووصلوا حتى شارع «الثاني من نوفمبر» الذي أراد الصهاينةُ أن يخلّدوا من خلاله وعدَ بلفور المشؤوم. وفي سنة ١٩٧٤ كانت الثورة الفلسطينيّة في أوْجها ففَرضتْ على العالم الاعترافَ بالحقّ ونفيَ الباطل، فدانت الأممُ المتحدةُ الصهيونيةَ بوصفها حركةً عنصريّةً كالأپارتهايد، فغضب الصهاينةُ على الأمم المتحدة وغيّروا اسمَ الشارع إلى «جادّة الصهيونيّة.» ولكنْ شاءت المفارقة أن تصبح «جادّةُ الصهيونيّة» المحورَ الرئيسَ لحيفا العربيّة المتجدّدة. وشكّلت التسميةُ المذكورةُ استفزازًا لمشاعر غالبيّة سكّان الشارع، الأمرُ الذي أدّى إلى مطالباتٍ متزايدةٍ بتغيير اسم الشارع وإعادة اسمه الأصليّ: شارع الجبل.

بحسب سياسة «التعايش» المنشودة لبلديّة حيفا، لا توجد في حيفا مراكزُ عربيّة بل مراكزُ «يهوديّة ـ عربيّة،» أهمُّها «بيتُ الكرمة» الموجودُ في شارع الجبل. في مناسبة الأعياد الشتويّة تقيم بلديّةُ حيفا مهرجانَ «عيد الأعياد» في وادي النسناس، الذي يرتاده عشراتُ الآلاف من الزائرين، معظمُهم من اليهود الإسرائيليين؛ ذلك أنّ وادي النسناس في حيفا هو البقعة الأخيرة في فلسطين العربيّة التي يشعرون براحة التجوّل فيها كسيّاح.

كان يومُ ٢٠٠٨/١/٢٨ آخرَ أيّام عيد الأعياد. وكان شبابُ نادي «حيفا الغد» منهمكين في استقبال زوّار معرض تضامنٍ مع أهل غزّة تحت الحصار، عندما وصلتْ أخبارُ المجزرة الصهيونيّة الجديدة ضدّ أهل غزّة. وسرعان ما تحوّل المعرضُ إلى مركزٍ انطلقتْ منه الاتصالاتُ مع كلّ القوى الوطنيّة والديمقراطيّة في حيفا، والإعداداتُ للمظاهرة الوحدويّة في شارع الجبل قرب بيت الكرمة، حيث رُفعتْ أعلامُ فلسطين والشعاراتُ والهتافاتُ المنددّةُ بجرائم الصهيونيّة والمناصرةُ لأهل غزّة وصمودهم الأسطوريّ. ثم عادت المظاهرة لتتحوّل إلى مسيرةٍ جماهيريّةٍ جابت شوارعَ حارة الواد.

كان لاختيار موقع المظاهرة قرب بيت الكرمة ومقطع شارع الجبل، الواقع بين شارع الكرمة وشارع عبّاس، عدّةُ أسباب، منها: كثافةُ السكّان العرب في المنطقة، ووجودُها على مفترق طرقٍ رئيسٍ يوصل رسالةَ المظاهرة الغاضبة إلى الجماهير العربيّة واليهوديّة؛ ومنها قربُ الموقع من حيّ الواد، الذي يوفّر للمتظاهرين فرصةَ الدفاع عن النفس في حالة الهجوم المعادي، بسبب ازدحامه وكثرة أزقّته. ومنذ ذلك التاريخ واصلت القوى الوطنيّةُ في حيفا المظاهراتِ اليوميّة. وفي بعض الأيّام نَظّمتْ أكثرَ من مظاهرة، معظمُها توقّف أو انطلق أو مرّ في المقطع المذكور من شارع الجبل. وكان من الطبيعيّ أنْ طَرحت اللجنةُ الشعبيّةُ، التي تقود حملةَ الاحتجاج والمظاهرات، تسميةَ منطقة المظاهرات هذه بـ «ساحة غزّة.»

إذا كانت المظاهرة في الداخل تميّزتْ في الماضي بتباين الأجندات، فإنّ تظاهرة سخنين الجبّارة في ٢٠٠٩/١/٣ سارت تحت راية فلسطين.

لماذا غزّة؟

عندما جرت الانتخاباتُ التشريعيّةُ الفلسطينيّة في أوائل عام ٢٠٠٦، شكّك الكثيرون في جدّية (وجدوى) المشاركة في هذه الانتخابات في ظلّ الاحتلال. ولكنْ لا بدّ أن نرى اليومَ أهميّةَ الفرصة التاريخيّة التي استغلّها الشعبُ الفلسطيني ـ رغم كلّ محدوديّاتها ـ لسحب الشرعيّة من نهج التعاطي مع المشروع الإمبرياليّ ـ الصهيونيّ الظالم، وللتأكيد على نهج مقاومة الاحتلال ورفض شرعنة جرائم التطهير العرقيّ منذ عام ١٩٤٨ والتمسّك بالحقوق الوطنيّة. ولا بدّ من الانتباه إلى أنّ مهندسي السياسة الإمبرياليّة فوجئوا بانتصار حماس واعتبروه ضربةً لمشروعهم، ومن ثم ألغوْا كلَّ ادّعاءاتهم بالحاجة إلى دمقرطة العالم العربيّ. ولكنّ هذا الخيار الديمقراطيّ للشعب الفلسطينيّ لم يتحقّقْ على وجه الأرض إلاّ بعد فرض حماس سيطرتَها على قطاع غزّة بقوة سلاحها في حزيران ٢٠٠٧، وذلك بعد محاولاتٍ منهجيّةٍ من القوى الإمبرياليّة لتسليح وتدريب قوًى فلسطينيّةٍ متعاونةٍ لخلق الفوضى والانفلات الأمنيّ والحرب الأهليّة في القطاع.

لأوّل مرّة منذ احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ تمكّنتْ حماس في غزّة من السيطرة على قطعة من الأرض الفلسطينيّة تحت السيادة الفلسطينيّة، وتشكيلِ ميزانِ قوّة يحميها ويضعها خارج نطاق التدخّلات «الأمنيّة» الإسرائيليّة. ولا عجب: فهي غزّة الأبيّة التي قاومت الاحتلالَ في الستينيّات والسبعينيّات، وأعلنت الانتفاضةَ الأولى (كان اتفاقُ أوسلو نتيجةً لرغبة الاحتلال في التخلّص من عبئها أولاً)، وفرضت انسحابَ جيش الاحتلال والمستوطنين عامَ ٢٠٠٥. ورغم قسوة الظروف، يمكن القولُ إنّ قطاع غزّة كان أوّلَ أرضٍ فلسطينيّة شبه محرّرة. ولم يُخفِ الصهاينة تمنّياتهم بأن تَغْرقَ غزّةُ في مياه البحر، حسب تعبير «رجل السلام» الإسرائيليّ رابين. وبالتالي لم نستغربْ وحشيّةَ الحصار والمذابح من قِبل نظام القهر العنصريّ تجاه أول بقعةٍ من الأرض الفلسطينية المحرّرة. غير أنّ صمودَ غزّة ومقاومتَها لم يكونا من شأن أهلها فحسب، وإنما يشكّلان المحورَ الرئيسَ للصراع التاريخيّ بين القوى الظالمة وبين آمال الشعب الفلسطينيّ وشعوب المنطقة كلّها في أن تعيش بسلامٍ وأمانٍ وازدهار.

لماذا أكتب؟

لم توقفْ صرخـتُنا أيّةَ طائرةٍ أو دبّابةٍ أو رصاصة في حملة القهر العنصريّ المجنون الموجَّه ضد أهل غزّة أطفالاً ونساءً وشيوخًا ورجالاً ومقاومين؛ ولم يَشْفِ علمُ فلسطين المرفوعُ في حيفا جُرحَ طفلةٍ واحدةٍ من آلاف ضحايا العدوان. فلماذا نتظاهر؟ ولماذا أكتب عن تجاربنا النضاليّة البسيطة هذه، وهي تخلو من البطولة، واحتمالُ تأثيرها العمليّ معدومٌ، إذ لا يمْكن أن تأخذ السلطاتُ الإسرائيليّةُ القمعيّةُ رأيَنا في حسبان ديمقراطيّتها المزيّفة، والعربُ الفلسطينيّون داخل الكيان الصهيونيّ العنصريّ هم من الكائنات المهدَّدة بالانقراض ولا يمكن أن يشكّلوا

توازنَ قوةٍ مع آلة الحرب المدمِّرة، واليهودُ من أصحاب الضمير قلّةٌ منبوذةٌ في المجتمع الإسرائيليّ العنصريّ؟

لقد شهِدْنا أكبرَ مظاهرات التنديد بالعدوان في تركيا، وهي عضوٌ في حلف الناتو الإمبرياليّ، وتقيم تحالفًا عسكريّاً مع إسرائيل، وتخوض معركةَ قمعٍ وإرهابٍ ضدّ الشعب الكرديّ. ولكنْ ها هي تركيا موجودةٌ في حالة صراع داخليّ بين حركةٍ إسلاميّةٍ انتصرتْ في انتخاباتٍ ديمقراطيّةٍ وشكّلتْ حكومةً، وبين المؤسّسة العسكريّة المعنيّة بتصعيد القمع الداخليّ ومحاربةِ الأكراد والتحالفِ مع إسرائيل والإمبرياليّة. وقد يكون التحرّكُ لنصرة الشعب الفلسطينيّ جزءًا من تحرّك جماهير تركيا لكسب حرّيتهم وللتحرّر من رواسب الديكتاتوريّة والهيمنة الغربيّة.

كذلك الأمرُ في كلّ أنحاء المنطقة. وما إسرائيل إلاّ قلعةٌ عسكريّةٌ متقدّمةٌ للإمبرياليّة ولضرب حركات التحرّر في المنطقة، «مسمارُ جحا» مزروعٌ في قلب الوطن العربيّ الممزَّق، يتدخّل عسكريّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً لفرض الهيمنة الأجنبيّة ويشكّل الذريعةَ للضغط والعقوبات والتدخّلات العسكريّة. ومع نموّ ثقافة المقاومة والرفض الشعبيّ للهيمنة الإمبرياليّة، تزداد عدوانيّةُ السياسة الإمبرياليّة الصهيونيّة، ولكنْ يقلّ مفعولُها وتَضْعف قدرتُها على فرض إملاءاتها.

من هنا وجب أن نراجعَ أجندتنا لنرهّنها ونطوّرها. فنحن نلاحظ، بعد فشل العدوان الأمريكيّ على العراق وفشل العدوان الإسرائيليّ على لبنان عام ٢٠٠٦، أنّ مشروع الشرق الأوسط الجديد قد سقط من الأجندة الإمبرياليّة. ولأنّ مستقبلاً أفضلَ لهذه المنطقة لا يمكن أن يبشّر به طرحٌ ينساق مع المشروع الإمبرياليّ أو ينجمُ عنه، فإنّ التصدّي للمشاريع الإمبرياليّة يجب أن يقترن مع صياغة البدائل، بحيث تكون ساحة صياغة البدائل هي ساحة النضال ضدّ الهيمنة الإمبرياليّة وضدّ حروبها ومجازرها، ومن خلال بناء القوى والتحالفات والرؤية والأخلاق لشرقٍ أوسطَ جديدٍ ـ يضمّ فلسطينَ حرّةً ديمقراطيّةً وعالمًا عربيّاً حرّاً، موحّدًا، يُدار بأيدي شعوبه ولمصلحة جماهيره المقهورة.

من هذا المنظور يكون تحرّكُنا الجماهيريّ البسيط جزءًا من تشكيل القاعدة الجماهيريّة لعمليّة التغيير، وجزءًا من محاصرة الحصار وعزل النظام العنصريّ، ملتحمًا بذلك مع المقاومة البطوليّة لأهل غزّة. وفي هذه الأوقات العصيبة أحاول أن أَنقل انطباعاتٍ سريعةً وجزئيّةً من هذا القطاع في المعركة الكبيرة، آملاً أن نستفيد جميعًا من تبادل المعلومات والأفكار. لهذا نتحرّك، ولهذا أكتب.

تراكمُ التجربة النضاليّة لفلسطينيي ٤٨ وتطوّرها

العرب الفلسطينيّون الذين بقُوا داخل حدود الدولة اليهوديّة بعد جرائم التطهير العرقيّ عام ٤٨ يشكّلون جزءًا حيّاً وفعّالاً من الشعب الفلسطينيّ، يَعُدّ أكثرَ من مليون نسمة، ربعُهم تقريبًا لاجئون في وطنهم، ويعانون جميعًا العنصريّةَ والقمعَ المنهجيّ في كلّ مجالات الحياة. صحيح أنّ الانقطاعَ والفوارقَ في الظروف الموضوعيّة أدّت إلى نشوء أحزابٍ وحركاتٍ وحياةٍ سياسيّةٍ خاصّةٍ داخل منطقة فلسطين ٤٨؛ ولكنْ ما زالت تحرّكاتُ «عرب الداخل» تدور حول الأجندة العربيّة والفلسطينيّة نفسِها، مع تقلّباتها خلال مراحل التاريخ: من القوميّة العربيّة على النمط الناصريّ، والشيوعيّة الثوريّة والإصلاحيّة، ونموّ الثورة الفلسطينيّة المسلّحة والجماهيريّة، والليبراليّة الجديدة، والحركات الإسلاميّة.

بعد اتفاق أوسلو وتشكيل السلطة الفلسطينيّة تحت هيمنة الاحتلال، صَدّق البعضُ أنّ حلّ القضيّة الفلسطينيّة سيكون من خلال دولةٍ فلسطينيّةٍ في الضفّة الغربية وقطاع غزّة. وكانت تيّاراتٌ مركزيّةٌ في مناطق ٤٨ تعمل على تطوير أجندةٍ نضاليّةٍ لتحسين أوضاع العرب داخل الدولة اليهوديّة. ولكنّ هذا الأجندة وصلتْ إلى طريقٍ مسدودٍ نتيجةً لعنصريّة النظام.

كانت مشاركةُ عرب الداخل في الانتفاضة الأولى من خلال يوم غضب واحد، «يوم فلسطين،» في ١٩٨٧/١٢/٢١، بعد مرور ١٢ يومًا على انطلاقة الانتفاضة. وقد شهدت السنواتُ الثلاث عشرة ما بين انطلاقة الانتفاضة الأولى والثانية عمليّةً تراكميّةً مستمرّة في تطوّر وعي الجماهير وطرق التنظيم، تجلّت في بناء مجتمعٍ مدنيّ متطوّر يواجه العنصريّةَ في المناطق والمجالات المختلفة، ووصلتْ ذروةَ التّعبير عن نفسها في مرحلة النضالات الجماهيريّة في أواخر التسعينيّات مع مواجهات أراضي الروحة وأمّ السحالي. وعندما انطلقت انتفاضةُ القدس والأقصى في أواخر أيلول ٢٠٠٠ عمّت الانتفاضةُ الجماهيرَ العربيّةَ الفلسطينيّةَ في النقب والمثلّث والجليل والمدن المختلطة، وشارك عشراتُ الآلاف من الجماهير في مواجهة قوات القمع والقتل. وقد توحّد التضامنُ الطبيعيّ مع معاناة الإخوة الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة منذ العام ١٩٦٧ وخيبةِ الأمل من لاجدوى الأساليب الإصلاحيّة في مواجهة العنصريّة المتفشّية. كما ارتفعتْ وتيرةُ الغضب والرغبة في التحدّي أمام عنف الشرطة التي قتلتْ بدمٍ باردٍ ثلاثة عشر متظاهرًا وجرحت المئات. وقد استمرّت الانتفاضة في مناطق ٤٨ عشرة أيّام متتالية.

أما في أيّام عدوان تموز ٢٠٠٦ على لبنان فقد شهدْنا تجنّبَ الجماهير الفلسطينيّة للتحرّك السياسيّ الواسع أثناء الحرب، خوفًا من ردّ فعلٍ عنيفٍ من قِبل النظام. وكان المُنْفذَ المفضّلَ تحرّكٌ مشتركٌ مع مناهضي الحرب في الوسط اليهوديّ. ومن هنا الدورُ البارزُ للمظاهرات ضدّ الحرب في مدينة حيفا المختلطة، وهي مظاهراتٌ لم تتوقّفْ خلال كلّ أيّام العدوان؛ ومن هنا أيضًا المشاركةُ العربيّةُ المهمّة في مظاهرات تل أبيب مع القوى اليهوديّة غير الصهيونيّة.

كانت مظاهرات الألوف في تل أبيب في ٢٠٠٩/١/٣ تجسيدًا جديدًا للتحالف بين القوى المناهضة للصهيونيّة داخل المجتمع اليهوديّ والقوى الوطنيّة الفلسطينيّة.

فلسطينيو ٤٨ وحصار غزّة

حصار غزّة وَجد فلسطينيي ٤٨ غيرَ جاهزين لمواجهة الظرف التاريخيّ، خصوصًا بالنظر إلى الخلاف الفلسطينيّ ـ الفلسطينيّ من خارج سياق الصراع الرئيس مع الاحتلال، ومع اعتياد غالبيّة القيادات في مناطق ٤٨ الاكتفاءَ بدور الداعم لموقف حركة التحرّر الفلسطينيّة من دون محاولة التأثير والمشاركة في صياغة طريقها. كما أنّ العلاقات الهشّة، والمتوتّرةَ أحيانًا، بين قيادات الأحزاب المحليّة داخل تلك المناطق، والنابعة من الصراعات على مراكز القوى، شكّلتْ عائقًا إضافيًا أمام التحرّك الجماهيريّ، ومَنعتْ في حالاتٍ كثيرةٍ العملَ المشتركَ، وتسبّبتْ من ثم في ابتعاد غالبيّة الجماهير (وهي بالطبع غيرُ حزبيّة) عن ساحة العمل النضاليّ.

بعد مرور نصف سنة على فرض الحصار المشدّد على غزّة، تشكّل ائتلافٌ لكسر الحصار، وشارك في تشكيله كلٌّ من: الحركة الإسلاميّة بجناحيْها الشماليّ والجنوبيّ، والتجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ، وحركة أبناء البلد، وأحزاب أخرى، مع غيابٍ ملحوظٍ للحزب الشيوعيّ والجبهة الديمقراطيّة للسلام. وقام الائتلاف بأول مظاهرةٍ جماهيريّةٍ مشتركة في مدينة الناصرة في ٢٠٠٨/١/٥. ورغم أنّ قيادة الحزب الشيوعيّ كانت تتغزّل في ذلك الحين بقيادة السلطة الفلسطينيّة في رام الله وتطعن في شرعيّة سلطة حماس المنتخَبة، فقد رأينا من الممكن والضروريّ توحيدَ القوى الجماهيريّة حول مطلب كسر الحصار، وتمّ ذلك في أهمّ مراحل التضامن مع أهل غزّة خلال سنة ٢٠٠٨. وانطلقتْ عدّةُ فعّاليّات: مثل مسيرة أمّ الفحم الوحدويّة في الرابع من آذار، ومحاولة الانطلاق في سفينة التضامن لفلسطينيي ٤٨ من ميناء يافا في السابع من كانون الأول.

وسجّل الانشدادُ نحو التضامن المباشر مع أهالي غزّة في معاناتهم وصمودهم تطوّرًا ملحوظًا في الدور التاريخيّ لفلسطينيي ٤٨ تجاه القضيّة الفلسطينيّة. ففي الماضي كان هنالك مَن راهن على أنّ «عرب الداخل» سينخرطون كجزءٍ من النظام السياسيّ الإسرائيليّ ليشكّلوا وسيلةَ ضغطٍ على هذا النظام العنصريّ نحو «الحلّ السلميّ» للقضيّة الفلسطينيّة. لكنّ هذا النظام أثبت مجدّدًا أنه غيرُ قادر على الانصلاح، إذ رَفض على الدوام أيَّ دورٍ للعرب «المواطنين» في صياغة سياساته، واشتدّت عنصريّتُه وعنجهيّتُه في مناطق ٤٨ و٦٧. وكان ردُّ فعل فلسطينيي ٤٨ تطويرَ رؤيةٍ للصمود والصراع الطويل الأمد، ولأول مرّة تُستثمر هذه الرؤيةُ سياسيًا في التضامن مع غزّة المحاصرة من أجل تجاوز الموقف المتقوقع للفريق الفلسطينيّ الذي ما زال يراهن على «عمليّة السلام» الفارغة من أيّ مضمون.

لا أكتوبر ثانيًا

في سيناريوهات الحرب الإسرائيليّة يشكّل الرجوعُ إلى ما يشْبه انتفاضةَ أكتوبر ٢٠٠٠ في الداخل أحدَ عوامل الخطر، إلى جانب فتح جبهاتٍ عربيّةٍ على الحدود. وكانت مواجهاتُ انتفاضة القدس والأقصى في الداخل ـ خلافًا للوضع في المناطق

المحتلة منذ ٦٧ ـ ردّ فعلٍ جماهيريّاً عفويّاً لم يقف وراءه أيُّ تنظيم. وكان للقمع الدمويّ لحركة الاحتجاج، السلميّةِ في جوهرها، دورٌ أساسٌ في ازدياد وتيرة المواجهات، وصبَّ ذلك كلُّه في نشوء نوعٍ من الردع المتبادَل بين الجماهير والنظام.

منذ يوم ٢٠٠٨/١٢/٢٨، ومع انطلاق النظام العنصريّ في حملة المذابح والإبادة ضد أهالي غزّة المحاصرين، انطلق تحرّكُ جماهير ٤٨ الفلسطينية، مناشدين جماهيرَ العالم العربيّ، وكلَّ أحرار العالم، التحرّكَ لنجدة غزّة. وعمّ التحرّكُ الجماهيريّ كلَّ قرية ومدينة، وفي الكثير من المواقع سُجّلتْ أرقامٌ قياسيّةٌ من ناحية عدد المظاهرات وعدد المشاركين فيها. وشَهدتْ مدينةُ سخنين الجليليّة الصامدة في ٢٠٠٩/١/٣ أكبر مظاهرة جماهيريّة في مناطق ٤٨ منذ الاحتلال، وهي مظاهرةٌ دعت إليها لجنةُ المتابعة العربيّة التي تضمّ كلّ قيادات فلسطينيي ٤٨. وإذا كانت المظاهرات الجماهيريّة في الداخل تميّزتْ في الماضي بتباين الفرَق والأجندات، بحيث يتظاهر كلُّ تيّار دينيّ أو حزبيّ تحت أعلامه وشعاراته (وكانت «حركة أبناء البلد» تتميّز برفع أعلام فلسطين والشعارات الوطنية «الملتهبة»)، فإنّ مظاهرة سخنين الجبّارة سارت هذه المرّةَ كلّها تحت راية فلسطين ـ راية الحريّة على أرض الوطن ـ والأعلام السوداء، ونادت كلُّها بشعارات التمسّك بالوطن والصمود والعزم على الثورة على طريق التحرير، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ مظاهراتٍ حاشدةٍ أخرى في كلّ أنحاء البلاد.

في الأسبوع الثاني للعدوان، بعد أن بدأتْ قواتُ الاحتلال الاجتياحَ البرّيّ لأراضي قطاع غزّة، أخذ جهازُ الشرطة الصهيونيّة بمحاولة قمع المظاهرات من خلال تفريق بعضها بالقوة واعتقالِ مئات المتظاهرين وشنِّ حملةِ تحقيقٍ وتهديدٍ ضدّ الناشطين. وقد حاولت الشرطةُ إعادةَ توقيف المتظاهرين الذين أُطلق سراحُهم خلال الأسبوع الأول من العدوان وتمديدَ توقيفهم حتى انتهاء الإجراءات القانونيّة، الأمرُ الذي يعني إبقاءهم في المعتقلات أشهرًا طويلة، وكلُّ ذلك بهدف ردع الجماهير عن المشاركة في المظاهرات. وحتى كتابة هذه السطور تستمرّ المظاهراتُ الاحتجاجيّة، ونَسْمع عن مواجهاتٍ متفرّقةٍ هنا وهناك، بعيدًا عن المواجهة الشاملة. ولكننا نرى أنّ هنالك عمليّةً تراكميّةً قوامُها حركةُ الجماهير.

«معارضتان» للحرب داخل المجتمع اليهوديّ في فلسطين

في المجتمع الإسرائيليّ، تتميّز المرحلةُ الأولى من كلّ حربٍ جديدةٍ بانشداد الدعم الإعلاميّ والجماهيريّ إلى النظام؛ ولا تبدأ التساؤلاتُ والشكوكُ والمعارضةُ إلاّ بعد تراكم الخسائر بين الجنود واستمرار الحرب وفقدان آفاق المكسب السياسيّ. وهذا نمطٌ تحرّكٍ يميّز «مناهضي الحرب» من بين الصهاينة، الذين يرون مصلحتَهم من خلال المشروع الاستعماريّ العنصريّ، ويدركون أنه لا يمكن لهذا المشروع التقدّم إلاّ عن طريق الحروب والمذابح وردع الفلسطينيين والعرب عن المطالبة بحقوقهم. ونحن لا نعتبر هؤلاء «مناهضي حرب» أو «دعاةَ سلام» بل نعتبرهم «مناهضي فشل الحرب»... وفي أحسن الأحوال هم يحاولون تثبيتَ مكاسب الصهيونيّة من حروبها السابقة، وذلك عبْر التسويات السياسيّة.

لقد تسبّبتْ أزمةُ الصهيونيّة في تلاشي «معسكر السلام» الإسرائيليّ الذي كان يعتمد على إمكانيّة فرض شروط السلام على العرب من موقع القوة. وفي الوقت نفسه، وبالتحديد مع انتفاضة القدس والأقصى، تشكّلَ قطبٌ جديدٌ داخل المجتمع اليهوديّ من الناشطات والناشطين الديمقراطيين الذين لم يكونوا جزءًا من الإجماع الصهيونيّ بل اختاروا الانضمام إلى النضال التحرريّ الفلسطينيّ. ويشارك أنصارُ هذا التيّار ـ من حركة «تعايش» وحركة «تحرّريّون ضد الجدار» وغيرهم ـ في العديد من المظاهرات الشعبيّة ضدّ الاحتلال في الضفة الغربيّة، وكان لهم دورٌ أساس، إلى جانب الأحزاب العربيّة، في تنظيم الحركة المناهضة للحرب أيّامَ الهجوم الصهيوني على لبنان عام ٢٠٠٦. كما كانت مظاهرةُ الألوف في تل أبيب في ٢٠٠٩/١/٣ ضدّ مجازر الصهيونيّة في غزّة تجسيدًا جديدًا للتحالف بين القوى المناهضة للصهيونيّة داخل المجتمع اليهوديّ والقوى الوطنيّة الفلسطينيّة.

تشكّل مدينتُنا، حيفا، نموذجًا متقدّمًا لطرح بديلٍ من الصهيونيّة داخل المجتمع اليهوديّ، وله ميزتان هامّتان. أولاهما أنّ الحركات الوطنيّة الفلسطينيّة هي العمودُ الفقريّ لأيّ تحرّكٍ سياسيّ؛ وثانيتُهما أنّ التحرّك الديمقراطيّ بين الناشطين اليهود مكمِّلٌ للتحرك الفلسطينيّ لا منفصلٌ عنه. وقد تجسّد هذا النموذج وارتقى إلى مستوى البديل السياسيّ من خلال مؤتمر حيفا لأجل حقّ العودة والدولة العلمانيّة الديمقراطيّة في فلسطين، الذي تمّ عقدُه في ٢٠ ـ ٢٠٠٨/٦/٢١ بمبادرةٍ من «حركة أبناء البلد» وبمشاركةٍ واسعةٍ من ناشطاتٍ وناشطين من حركاتٍ وأحزابٍ عديدة، ومن المجتمع المدنيّ، ومن كلّ أنحاء العالم. ويستمرّ هذا التلاحم النضاليّ في المظاهرات ضدّ مجازر غزّة في شارع الجبل، وفي جميع الفعاليّات المناهضة للعدوان في حيفا.

لا شكّ في أنّ بشاعة العدوان الصهيونيّ، وصمودَ أهل غزّة، يمنحان دفعةً جديدةً لكلّ مناهضي الصهيونيّة، ويكْشفان أمام الكثيرين إفلاسَ الصهيونيّة الأخلاقيَّ والسياسيَّ، وضرورةَ الكفاح للتخلّص من هذا النظام الدمويّ.

حيفا (فلسطين)

يوآب بار

عضو المكتب السياسيّ لـ «حركة أبناء البلد» الفلسطينيّة (www.abnaa-elbalad.org)، ومن المبادرين إلى مؤتمر حيفا لأجل حقّ العودة والدولة الديمقراطيّة العلمانيّة في فلسطين (www.ror1state.org). والمقال مكتوب بالعربية خصّيصًا لـ الآداب. وقد اعتقل الكاتب في ٢٠٠٩/١/٦ بعد انتهاء اعتصام شارك في تنظيمه في شارع الجبل.